

الشوق إلى البقاع المقدسة في أدب القاضي عياض

The Motif of Longing for the Sacred Sites in

the Literature of Qadi 'Iyad

أمال حليتم*

منصف شلي

جامعة الإخوة منتوري، قسنطينة

جامعة الإخوة منتوري، قسنطينة

amel.halitim@umc.edu.dzchelli.moncef@umc.edu.dz

تاريخ الإرسال: 2026-02-02

تاريخ القبول: 2026-05-16

ملخص:

يتناول هذا البحث مظاهر الشوق والحنين إلى البقاع المقدسة في أدب القاضي عياض (476-544هـ)، بوصفها بعداً وجدانياً وروحياً طغى على شعره النبوي ورسائله النثرية، ولا سيما في ظل حرمانه من أداء فريضة الحج وزيارة الروضة الشريفة. وينطلق البحث من تتبع السياق التاريخي والسياسي الذي عاشه القاضي عياض، بين دولتي المرابطين والموحدين، وما رافقه من مسؤوليات قضائية وطموحات سياسية حالت دون رحلته إلى المشرق، فحوّل الشوق المكبوت إلى خطاب أدبي زاخر بالتخييل والتوسل والمديح النبوي.

ويحلّل المقال دوافع هذا الشوق، وأثرها في تشكيل التجربة الشعرية عند القاضي عياض، مبرزاً حضور الأمكنة المقدسة في شعره بوصفها فضاءات متخيّلة تحقق للشاعر ما عجز عنه واقعاً. كما يقف عند الرسالة النبوية التي وجهها إلى الرسول ﷺ، بوصفها نموذجاً نثرياً يعكس شدة التعلق الروحي، ويكشف عن بنية فنية قائمة على الاستهلال التمجيدي، والتوسل، والابتهال، والخاتمة الدعائية.

ويخلص البحث إلى أن الشوق إلى البقاع المقدسة عند القاضي عياض لم يكن مجرد غرض أدبي تقليدي، بل تجربة وجودية عميقة، تداخل فيها الديني بالسياسي، والذاتي بالجماعي، فتحوّل الأدب إلى وسيلة تعويض رمزي، وفضاء للتطهر والرجاء والانكسار الإنساني أمام المقام النبوي الشريف. الكلمات المفتاحية: القاضي عياض؛ الشوق؛ البقاع المقدسة؛ المديح النبوي؛ الرسالة النبوية؛ الأدب المغربي؛ التخييل الشعري.

Abstract:

This study examines manifestations of longing for the sacred places in the literary works of Qāḍī 'Iyād (476–544 AH / 1083–1149 CE), particularly in his prophetic praise poetry and devotional prose. It situates this yearning within the

historical and political context of the Almoravid and Almohad periods, during which his judicial responsibilities and political ambitions prevented him from performing the ḥajj and visiting the Prophet's tomb. As a result, this deprivation was transformed into a rich literary discourse grounded in imagination, supplication, and praise. The study highlights sacred places as imagined spaces that compensate for physical absence and concludes that this longing constitutes a profound spiritual and existential experience shaped by personal struggle and historical circumstances.

Keywords: Qāḍī 'Iyād; Longing; Sacred Sites; Prophetic Praise; Prophetic Epistle; Moroccan Literature; Poetic Imagination

مقدمة:

كان القاضي أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي الأصل، السبتي النشأة (476-544هـ)، شخصية سياسية ودينية مهمة في عصره، عاصر الدولتين: دولة المرابطين ودولة الموحدين.

نشأ في أسرة رفيعة المقام. تعلّم في سبته على يد ثلّة من العلماء، ثمّ رحل إلى الأندلس، وبعد عودته إلى سبته تولى قضاءها، ثمّ رحل إلى غرناطة ليتولّى قضاءها أيضاً، ثمّ عاد إلى سبته قاضياً مرّة ثانية. عايش استقرار ورخاء المرابطين في الشّطر الأوّل من حياته، وكان مطيعاً لهم متفرغاً للعلم والقضاء، وكانوا يقدرّون العلماء، فالأمير علي بن يوسف بن تاشفين كتب رسالة توصية لابن حمدين قاضي الجماعة بقرطبة يوصيه بعياض عندما عزم على السفر إلى الأندلس¹.

أما الشّطر الأخير من حياته فكان مختلفاً كلياً، فبعد قيام دولة الموحدين ومعارضته لها، عاش فتنة عظيمة وقاد ثورة ضدهم، ثمّ أعلن الولاة ثمّ عاد مرّة أخرى للثورة، وعانت سبته من الحصار، واضطر القاضي عياض لتجديد البيعة لعبد المؤمن، ثمّ نفى إلى مراكش وتوفي بها².

¹ - عياض أبو عبد الله محمد، التعريف بالقاضي عياض، تحقيق محمد بن شريفة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ص 6.

² ينظر ترجمته في:

كان القاضي عياض مفسراً، ومحدثاً، وفقهياً مالكيّاً، ولغوياً وأديباً، ضاع الكثير من نثره. ومما بقي منه رسالة نبوية أرسلها إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم.

كما ضاع الكثير من شعره وما بقي منه تنوّعت أغراضه بين الوصف، والمدح، والإخوانيات، والنسيب، والمديح النبوي.

ولعل أهم ما يميز المديح النبوي عند القاضي عياض كثرة تشوقه للأماكن المقدسة.

1. دواعي الشوق والحنين إلى البقاع المقدسة:

ربما يكون أكثر شعر القاضي عياض الديني الذي وصل إلينا نظم في هذا الغرض. فهو لم يرحل إلى المشرق لا من أجل تلقي العلم ولا من أجل الحج وزيارة القبر النبوي.

فربما أكثر من هذا الغرض الشعري ليعوّض حرمانه من زيارة البيت الحرام وأداء مناسك الحج وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم.

ولعل أهم سبب حال دون سفره مسؤولية القضاء الملقاة على عاتقه، والذي عدّه محنة ابتلي بها. قال في مقدمة كتابه الشفا: "فبادرت إلى نكت مسفرة عن وجه الغرض مؤدياً من ذلك الحق المفترض، اختلستها على استعجال، لما بصدده من شغل البدن والبال بما طوّقه من مقاليد المحنة التي ابتلي بها، فكادت تشغل عن كلّ فرض ونفل، وترد بعد حسن التقويم إلى أسفل سفل".¹ فهذه المهنة المهمة والخطيرة خاصة في فترات الأزمات والفتن

- شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، صندوق إحياء التراث الإسلامي، المملكة المغربية، الإمارات العربية المتحدة

- عدد خاص بالقاضي عياض، مجلة المناهل، الرباط، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية، السنة 7 العدد 19 دجمبر 1980.

- أبو عبد الله محمد بن عياض، التعريف بالقاضي عياض تحقيق محمد بن شريفة، المملكة المغربية؛ وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، بلا تاريخ.

- شواطئ الحسين بن محمد. القاضي عياض عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته. 1. دمشق: دار القلم، 1999.

¹ - موسى أبو الفضل عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، دار الكتاب العربي، بيروت، 1984، ص7.

تتطلب تفرغا تاما ووجودا متواصلا في الميدان؛ فلا يعقل أن يسافر قائد الثورة سفرا طويلا ويترك جنوده وبلاده عرضة للهزيمة والحصار، وهذا ما عبّر عنه شعرا بقوله¹:

لولا العوادي والأعداء زرتكم أبدا ولوسحبا على الوجنات

فعوادي الزمن وأعداء القاضي -وربما يقصد الموحدين- حالوا دون قيامه بشعيرة الحج، ولولا هم لزار البيت الحرام زحفا على وجنتيه، غير مبال بمشقة السفر وبعد المسافة ومخاطر الطريق.

¹ - التلمساني شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، المملكة المغربية الإمارات العربية المتحدة، صندوق إحياء التراث الإسلامي، ج4، ص143

إضافة إلى ذلك طموحه السياسي وحلمه بتولي منصب قيادي في سبته؛ قال عبد الهادي التازي: "إنّ الذين يتتبعون مراحل حياة القاضي عياض وخاصة في الفترة الأولى من ظهور الموحدين لا يطمئنون كثيراً إلى أن الأمر كان فقط بمناصرة مذهب ومعاداة آخر، ولكنّه كان يتعلّق أيضاً-وهذا مهم- بطموح القاضي إلى أخذ نصيبه في الحكم، في السلطة... وأنّه لم يتردد لتحقيق ذلك في الالتفات ذات اليمين وذات الشمال".¹

فصاحب الطموح السياسي لا يسمح له بالسفر لمدة طويلة وترك ساحة المعركة شاغرة، فلا بدّ أن يكون حاضراً دائماً في قلب الحدث مستعداً لأيّ طارئ، خاصة في اللحظات التاريخية الفاصلة التي تغير مصير الدول والأفراد؛ لكنّ القاضي عياض لم يحقق أهدافه فلجأ: "إلى قول الشعر من أجل استعطاف عبد المؤمن ومن أجل دفن آلامه في بحر الشوق إلى الرّسول صلى الله عليه وسلّم، آية ذلك هذه المطولات المشحونة بالآلام والآمال".²

وعرف القاضي عياض بحبه لوطنه وكرهه للسفر وركونه للاستقرار وقد قال شعراً في ذلك:³

تقعد عن الأسفار إن كنت طالبا نجاة ففي الأسفار سبع عوائق
تشوّق إخوان وفقد أحبة وأعظمها يا صاح سكنى الفنادق

الأكيد أن عياضا يخاطب نفسه ويبرر لها أو ربما يلتمس لها الأعذار. فالاستقرار نجاة وسلامة ونعيم برفقة الأحبة والإخوان في البيت دون الحاجة لسكنى الفنادق، دون أن ينسى

¹ - مجلة المناهل، عدد خاص بالقاضي عياض، السنة 7 العدد 19، ص 481

² - السلام، شقور عبد، القاضي عياض الأديب، الأدب المغربي في ظل المرابطين، دار الفكر المغربي، طنجة، 1983، ص 216

³ - الموقت المراكشي، محمد بن محمد بن عبد الله، السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية، مؤسسة آفاق للدراسات والنشر والاتصال، مراكش، 2011، ص 54

فضل زيارة الروضة الشريفة، وهو من قال في كتاب الشفا: "زيارة قبره صلى الله عليه وسلم سنة من سنن المسلمين مجمع عليها، وفضيلة مرغّب فيها، روي عن ابن عمر رضي الله عنه..... قال النبي صلى الله عليه وسلم: من زار قبري وجبت له شفاعتي."

هذه الأسباب التي حالت دون حج القاضي عياض دفعته للتعويض عن ذلك، والحج خيالا فقط من خلال أشعار نظمها، عبّر فيها عن شوقه لأداء الفريضة، وذكر مناقب المصطفى صلى الله عليه وسلم. عدد فيها البقاع المقدسة، وتمنى لو قدر له رؤيتها حقيقة لا خيالا. وذكر المناسك والبيت الحرام والروضة الشريفة والقبر النبوي.

خاصة بعد سقوط دولة المرابطين واندثار أحلامه السياسية وإبعاده عن القضاء ونفيه إلى مراكش. فلجأ إلى الله عزّ وجلّ وإلى رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم فقال¹:

لجأت إلى باب الكريم لفاقتي فليس لنا مغنى سواه ولا مولى

كئيبا غريبا بافتقار وضیعة ذليلا حقيرا أهمل الفرض والنفلا

هذه هي حال القاضي عياض في آخر حياته أمسى فقيرا، كئيبا، غريبا، ذليلا، حقيرا، ولم يتمكن من أداء فريضة الحج فلجأ إلى ربّه الكريم ليغنيه من فضله.

كان الموحدون سبب تنحيته عن القضاء وإبعاده عن مدينته، ولم يجد من سلاح يدافع به عن نفسه سوى الدعاء عليهم علّها تكون ساعة استجابة قائلا²:

فانزل عليهم من علاك صواعقا تصير مدى الأعمار أخبارها تتلى

¹القاضي عياض الأديب؛ الأدب المغربي في ظل المرابطين؛ ص 235

²المصدر نفسه؛ الصفحة نفسها.

وانتصر الموحدون في نهاية المطاف على المرابطين، وأخمدوا الثورات التي اندلعت ضدهم وقضوا على خصومهم.

احتفظ كتاب أزهار الرياض برسالة نثرية أرسلها القاض عياض إلى الرسول صلى الله عليه وسلم. وهو لون أدبي شاع في المغرب الإسلامي. فقد كان الأدباء يكتبون الرسائل إلى الروضة الشريفة، إما على لسانهم أو على لسان غيرهم. ويعلل القلقشندي سبب شيوع هذا النوع من الرسائل بقوله: "وأما الكتب التي تكتب إليه صلى الله عليه وسلم فقد جرت عادة الأمة من الملوك وغيرهم بكتابة الرسائل إليه صلى الله عليه وسلم بعد وفاته بالسلام والتحية والتوسل والتشفع به إلى الله تعالى في المقاصد الدنيوية والأخروية، وتسييرها إلى تربته صلى الله عليه وسلم. وأكثر الناس معاطاة لذلك أهل المغرب لبعدهم بلادهم، ونزوح أقطارهم."

3"

ويبدو هذا التعليل منطقياً، فالحرمان من الزيارة لبعده المسافة دفع المغاربة للتعويض بكتابة الرسائل وإرسالها إلى التربة المقدسة.

2. بناء الرسالة النبوية عند القاضي عياض:

2-1. الاستهلال: يستهل القاضي عياض رسالته بقوله: "إلى سيد ولد آدم، وشفيع العالم، البشير النذير، السراج المنير، الرسول الكريم" ¹ ويستمر في تعداد شمائله وصفاته ويذكر أسماء ونسبه.

ثم يختم الاستهلال بتقديم نفسه: "من الشائق إلى زيارته، الراجي في دعوته، المدخرة في شفاعته، المومن بنبوءته ورسالته، المعترف بتقصيره في طاعة الله وطاعته، عياض بن موسى".²

1 - شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني: أزهار الرياض في أخبار عياض، صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية والإمارات العربية المتحدة.

جزء 4 ص 11 ص 12

2 - نفسه ج 4 ص 14

ويبدأ بتقديم اسم الرسول صلى الله عليه وسلم على اسمه تأدياً وتبجيلاً له، ثم يقدم نفسه باسمه فقط دون ألقاب علمية ودون ذكر مكانته الاجتماعية، هو عياض بن موسى المشتاق للزيارة، المؤمن بالنبوة والرسالة، طالب الدعاء والشفاعة، والمعتز بتقصيره في الطاعات.

2-2. التصدير: ثم يصدر رسالته بالبسملة ويصلي ويسلم على الرسول صلى الله عليه وسلم، ويعدد أسماء وصفاته ويذكر معجزاته، وهي غير الأسماء والصفات والمعجزات المذكورة في الاستهلال ودون تكرار.

ويختم تصديره بالصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم قائلاً: "عليك من صلوات الله وسلامه، وزلف بركاته وتحف إكرامه، كفاء محلك الشريف وقدره، وعداد نجوم الأفق وقطره، وجزاء ما كابدت وقاسيت في إظهار دين الله ونصره، وثواب ما دعوت لصراط الله وامثال أمره"¹

2-3. الغرض: ثم يبدأ رسالته ككل الرسائل بعد "وبعد": "فإني كتبت إليك صلى الله عليك، يا خاتم الرسل، ورحمة العالمين، ونعمة الله على المؤمنين، وشارح القلوب والصدور، ومخرجها من الظلمات إلى النور، فإني عبد من أهل ملتك، المتحملين لأمانتك، منهجك وشرعتك؟ والمتزمين للحنيفية ملة إبراهيم."²

ويذكر صفات أخرى له صلى الله عليه وسلم غير التي ذكرها في الاستهلال والتصدير ثم يعرف بنفسه، ويشعر في بيان شوقه لزيارة القبر النبوي ورؤية الآثار النبوية الشريفة، ثم يبين سبب تخلفه؛ فذنبه وأثامه منعتة "عن أداء حقوق الله، وحقوقك فهو طليح ذنوب ومآثم، وأسير تباعات وخل آثم، أثقلت ظهره مع العاصين خطاياهم وأثامهم، وانقطعت مع العادين لياليله وأيامه، وقصرت به عن جد المخلصين أوزاره وأجرامه."³ ويطلب عفو الله عز

¹ - المرجع السابق ج 4، ص 16، 17

² - المرجع نفسه، ج 4، ص 17

³ - نفسه، ج 4، ص 17

وجل وشفاعة نبيه صلى الله عليه وسلم، فلهذا الغرض كتب الرسالة وهذا الجزء كله توسل وابتهاالات وبكاء ودعاء صادق وشوق متأجج لخير بقاع الأرض وهو أعلم الناس بمكانتها.

فقد أورد في كتابه ترتيب المدارك وتقريب المسالك قول مالك بن أنس: "المدينة محفوفة بالشهداء، لا يدخلها الدجال ولا الطاعون، وهي دار الهجرة والسنة، وبها خيار الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، واختارها الله له بعد وفاته، وجعل بها قبره، وبها روضة من رياض الجنة، ومنبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس ذلك لشيء من البلاد غيرها." ¹ لكنه لم يتمكن من زيارتها ولا زيارة القبر النبوي فقط أرسل رسالة له يبثه أشواقه ويشرح آلامه ويطلب شفاعته ويدعو الله عز وجل ليكون من الزائرين في الدنيا ومن الناجين في الآخرة.

4.4. الخاتمة: ويختم عياض رسالته بتحية الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب والمهاجرين والأنصار وكافة الصحابة، وذريته وأمهات المؤمنين وأهل البيت كافة.

تتميز هذه الرسالة بكثرة الأسجاع والمحسنات البديعية عموماً لكن دون ملل ولا تعقيد ولا تكلف، كذلك كثرة الاقتباس الديني من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وتدل على إلمام القاضي عياض بالسيرة النبوية وبلاغته المتميزة.

هذه الرسالة أرسلت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بعد قرون من وفاته، إلا أنها لا تختلف في أسلوبها عن الرسائل التي ترسل إلى الأحياء، فهو صلى الله عليه وسلم حي في قلوب المسلمين إلى يوم الدين، وسلامهم يصله دائماً فهو القائل صلى الله عليه وسلم: "ما من أحد يسلم علي إلا رد الله عز وجل إلي روي حتى أرد عليه السلام." ² فخاطبه القاضي عياض بأدب جم، قدم المرسل إليه على المرسل لمكانته العظيمة في قلوب المسلمين فلا يجوز أن تتقدم أسماؤهم على اسمه وهذا مخالف لعرف الرسائل الدارج كما حرص على إظهار

¹ - القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك. تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ط 2 1403هـ 1983م، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، المملكة المغربية، ج 1 ص 34 ص 35

² - أحمد بن محمد بن حنبل: المسند، شرح أحمد الزين، ج 9، دار الحديث، القاهرة، ط 1 1416هـ 1995م الحديث رقم 10759.

تواضعه معه صلى الله عليه وسلم، ولم يعمد إلى التكلف في الأسلوب والمبالغة في الصنعة اللفظية لصدق مشاعره وشدة شوقه.

احتفظت كتب الأدب والتاريخ ببعض القصائد النبوية التي نظمها القاضي عياض في مناسبات مختلفة.

3. موضوعات شعر الحنين والشوق إلى البقاع المقدسة:

تضمّن هذا الغرض الشعري عند القاضي عياض عدة مواضيع فرعية تكررت في بعض القصائد:

1- وصول الشاعر إلى البقاع المقدسة وفرحته الشديدة بذلك يقول¹:

بشراك يا قلب هذا سيد الأمم وهذه حضرة المختار في الحرم

وهذه الروضة الغراء طاهرة وهذه القبة الخضراء كالعلم

ومنبر المصطفى الهادي وحجرته وصحبه والبقيع دائر بهم

وصل أبو الفضل إلى المدينة المنورة عند سيد الخلق وهو الآن في روضته وحمايته، يشاهد منبره وحجرته، وسط قبور صحابته، فلينس جميع الهموم فكل دعواته مجابة.

ويقول في قصيدة أخرى²:

¹- القاضي عياض الأديب؛ الأدب المغربي في ظل المرابطين؛ ص339
²- القاضي عياض الأديب؛ الأدب المغربي في ظل المرابطين؛ ص227-228

يا عين هذا السيّد الأكبر وهذه الروضة والمنبر

فشاهدي في حرم المصطفى من نوره الساطع ما يهر

يا عين ذا ماكنت تبغيـنه فما لأجفانك لا تمطر

في الأبيات الشعرية الأولى خاطب القاضي عياض قلبه، وبشّره بنيل مراده، أمّا في الأبيات الثانية فيخاطب عينه ويدعوها للتأمل في آثار المصطفى صلى الله عليه وسلّم، فهذا نوره وهذه روضته وهذا منبره فقد نالت أخيرا مبتغاها لكنها لا تبكي فرحا بذلك لأنّه خيال شاعر فقط وليس حقيقة فهو مازال في المغرب يبعد مسيرة شهر عن الحرم. ثم يصف المقام النبوي الشريف ليعود إلى عينه مخاطبا لها:

فاستبشري يا مقلتي باللقا فمن رأى الأحباب يستبشر

قد ذهب الهم وزال العنا وكل ما يخشى وما يحذر

فأخيرا حدث اللقاء المرتقب والبشرى المنتظرة برؤية الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، فذهب الهم وزال العناء.

وفي قصيدة ثالثة وقف القاضي عياض واستوقف وبشر واستبشر عند الوصول الى دار النبي محمد صلى الله عليه وسلم:

قف بالركاب هذا الريع والدار لاحت علينا من الأحباب أنوار

بشراك بشراك قد لاحت قبابهم فانزل فقد نلت ما تهوى وتختار

هذا المحصب هذا الخيف خيف هذي منازلهم هذي هي الدار

هذي قباب قبا آثار وطهم وذا هو الجزع فابك ذا هو الغار

وكأنه شاعر جاهلي يركب ناقته ويرحل في صحراء الحجاز، ويقف على الأطلال ويستوقف صاحبيه، لكنه هنا لا يبكي بل يستبشر خيرا، فأخيرا وصل إلى ربع ودار المصطفى صلى الله عليه وسلم ولاحت الأنوار ونالوا غاية المنى وظهر غار حراء.

كانت هذه مقدمات بعض قصائده الدينية؛ شوق عارم للرسول صلى الله عليه وسلم، حتى أنه تخيل السفر إلى المدينة ورؤية معالمها وشم نسيمها، والتمتع بأجوائها الروحية ولو في الخيال.

2- مدح الرسول صلى الله عليه وسلم؛ يذكر صفاته الخلقية والخلقية، ويعدد مناقبه مثل قوله¹:

هذا الذي جاءت التوراة شاهدة بأنه خير من يحفى وينتعل

هذا الذي جاء في الإنجيل مبعثه يتلوه من قبل ذا رهبانه الأول

هذا الذي هتفت من قبل مولده به الهواتف واشتاقت له المقل

¹ - القاضي عياض الأديب ؛ الأدب المغربي في ظل المرابطين؛ ص 342

هذا الذي كان من سيف بني ذي يزن مع جدّه نبأ من بعثه جلل

هذه القصيدة تتكون من تسع وأربعين بيتا خصصها للسيرة النبوية لعطرة ومدح النبي صلى الله عليه وسلم، وتعداد الشمائل المحمدية، كل الأبيات تبدأ باسم الإشارة -هذا- أكثر فيها الاقتباس من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف.

ويتكرر اسم الإشارة هذا في كثير من الأبيات، وكأنّه يراه أو ربما لشعوره بالقرب من الرسول صلى الله عليه وسلم.

ويقول في قصيدة أخرى نسجها على المنوال نفسه¹:

هذا النبي الحجازي الذي له بتقديمه في الرّسل أخبار
شهدت

هذا الحبيب الذي أسرى لخالقه ليلا وقد ضربت بالليل أستار

هذا الرسول الذي من أهله لنا على غيرنا فضل وأثار
شهدت

هذا الشريف الذي سادت به هذا الذي تربه كالمسك معطار
مضر

هذا الشفيع الذي ترجى شفاعته للمذنبين إذا ما اسودت النار

¹- القاضي عياض الأديب؛ الأدب المغربي في ظل المرابطين؛ ص 331

وفي قصيدة ثالثة يمدح الرسول صلى الله عليه وسلم، ويصف المقام النبوي الشريف:

هذا مقام المجتبي أحمد	فمثله الأعين لا تنظر
وأي فهم فيه لا ينجلي	وأي كسرفيه لا يجبر
ودت نجوم الأفق لو أنها	كانت قناديل به تزهـر
ما كان أهني مهجتي لو غدت	موطوءة فيه لمن يخطر
كل مقام قد سما قدره	في هذه الحضرة مستصغر
إلى ثراها الزعفران أنتهي	ومن شذاها المسك والعنبر
قد حسدتها سدرة المنتهى	لما حوت من الفلك والأنوار

هذا هو المقام النبوي الذي حرم من زيارته، أجمل ما ترى العين في هذه الحياة الدنيا، هي جنة الدنيا لا ينسى أن ينسب نفسه لها وإلى ثراها الزعفران.

يكرر القاضي عياض المعاني نفسها مستعينا برصيده المعرفي الديني الضخم، ودراسته للسيرة النبوية العطرة؛ يتحدث عن نسبه عليه الصلاة والسلام وعن ذكره في الكتب السماوية السابقة له، وعن حادثة الإسراء والمعراج، كما تحدث عن شفاعته يوم القيامة.

3-التوسل بالرسول صلى الله عليه وسلم وطلب الرحمة من الله عز وجل: ثم يكون القسم الثاني من موضوع القصيدة الرئيس الخاص بالقاضي عياض فيتوسل بالرسول صلى الله عليه وسلم ويطلب شفاعته ويلجأ لله عز وجل طالبا رحمته، معترفا بذنوبه طالبا التطهر منها.

مثل قوله¹:

وقد توسلت إلى الله في	شفاء داء بك يا منذر
فاشفع فإني بك مسترحم	واجبر فإني بك مستجير
واعطف على العبد المسيء الذي	أتى لإحسانك يستمطر
يرجوندى رحماك يا ذا العلا	في موقف أهواله تذعر

يدعو الله ويتوسل برسوله الكريم طالبا للشفاء والرحمة والجبر والعطف والإحسان في الدارين:

في الدنيا التي عانى فيها كثيرا وفقد فيها كل شيء فقال²:

سلبتني صروفه كل علق	من شباب وصاحب وأمان
---------------------	---------------------

¹- القاضي عياض الأديب؛ الأدب المغربي في ظل المرابطين؛ ص 335

²- القاضي عياض الأديب؛ الأدب المغربي في ظل المرابطين؛ ص 230

وفي الآخرة يرجو النجاة والشفاعة والفوز.

4- الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم: يختتم القاضي عياض قصيدته بالصلاة والسلام على الرسول صلى الله عليه وسلم وهي معان مكررة في الكثير من القصائد الدينية كالقصائد المولدية.

يقول القاضي عياض¹:

وصل يا رب على المصطفى	وآله ما جادت الأبحر
وصحبه والتابعين الألى	لهم بإحسان متى يذكر
ما هام صب وهى عارض	وسار ركب أوسرى عسكر

ويختتم قصيدة أخرى بهذه التصلية²:

صلى عليك إله العرش ما سجعت	ورق وما نفحت في الروض أزهار
وآله وعلى أصحابه السعدا	ما لاح نجم وما هطل مدرار

تتشابه خواتيم القصائد لأنها تدور حول الفكرة نفسها المكررة الصلاة والسلام الدائمين على خاتم الأنبياء والمرسلين .

¹-القاضي عياض الأديب؛ الأدب المغربي في ظل المرابطين؛ ص 232

²- القاضي عياض الأديب؛ الأدب المغربي في ظل المرابطين؛ ص232

هذه هو البناء العام للكثير من قصائد القاضي عياض الدينية، والملاحظ عليه تخلصه من المقدمة الغزلية التي كثيرا ما لازمت الشعر الديني منذ قصيدة كعب بن زهير "بانث سعاد". وعوضها ببيان فرحته عند الوصول إلى الأماكن المقدسة، وهي فرحة وهمية أو بالأحرى خيالية؛ لأن القاضي عياض لم يحج أبدا في حياته، هي فرحة الشاعر عندما يتجاوز حدود الزمان وحدود المكان ليحقق خيالا ما عجز عن تحقيقه واقعا.

الخاتمة:

إن الشوق إلى البقاع المقدسة يشكل أحد أبرز الملامح الفنية والوجدانية في أدب القاضي عياض، إذ تحول الحرمان من زيارة الحرمين الشريفين إلى دافع إبداعي عميق أسهم في تشكيل خطابه الشعري والنثري، وأغنى شعره النبوي ورسائله الروحية بأبعاد إنسانية صادقة ومشحونة بالرجاء والتعلق الروحي. فقد استطاع القاضي عياض، عبر التخيل الشعري والابتهاال النثري، أن يتجاوز قيود الزمان والمكان، وأن يؤسس حضوراً رمزياً في الفضاء المقدس، يعوّض به غياب الزيارة الحسية، ويحوّل الحرمان الواقعي إلى تجربة وجدانية متخيّلة ذات أثر جمالي وروحي بالغ.

كما تكشف نصوصه عن تداخل واضح بين التجربة الشخصية والتحوّلات السياسية العاصفة التي عاشها، في ظل صراع الدول وتقلّب المواقف، وهو ما أضفى على شوقه بعداً مأساوياً ووجدانياً خاصاً، جعل من المديح النبوي وسيلة للتنفيس والتطهر والالتجاء، ومن الكتابة الدينية فضاءً للتعويض الرمزي وبناء المعنى في لحظات الانكسار. وهكذا، يغدو أدب القاضي عياض شاهداً على قدرة الخطاب الديني الأدبي على احتضان الأزمات الفردية والجماعية، وتحويل المعاناة الذاتية والتاريخية إلى نصّ مشبع بالإيمان والحنين والصدق الشعوري، بما يبرز قيمة هذا الأدب في فهم التجربة الروحية للإنسان المسلم داخل سياقات تاريخية وسياسية مضطربة.

المراجع:

1. أبو الفضل عياض بن موسى. الشفا بتعريف حقوق المصطفى. تحقيق علي محمد البجاوي. بيروت: دار الكتاب العربي، 1984.
2. أبو عبد الله محمد بن عياض. التعريف بالقاضي عياض تحقيق محمد بن شريفة. المملكة المغربية: وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، بلا تاريخ.
3. تاويت بن محمد. الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى. ط 1. المجلد ج 1. الدار البيضاء: دار الثقافة، 1982.
4. شقور عبد السلام. القاضي عياض الأديب، الأدب المغربي في ظل المرابطين. طنجة: دار الفكر المغربي، 1983.
5. شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني. أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض. المملكة المغربية الإمارات العربية المتحدة: صندوق إحياء التراث الإسلامي، بلا تاريخ.
6. شواط الحسين بن محمد. القاضي عياض عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته. 1. دمشق: دار القلم، 1999.
7. مجلة المناهل. "عدد خاص بالقاضي عياض." مجلة المناهل (السنة 7 العدد 19).
8. أبو العباس أحمد القلقشندي. صبح الأعشى في صناعة الإنشا المطبعة الأميرية القاهرة 1333- 1915
9. القاضي عياض ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ط 2 وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، المملكة المغربية 1403-
10. أحمد بن حنبل المسند شرح حمزة أحمد الزين، دار الحديث، القاهرة، ط 1، 1416- 1995.